

الثلاث دارت في الاصل محاور تمدن الصيني والهندي والمصري والبراني والاشوري
والكلداني واليوناني وصائر الشعوب

ولما تهيأت له الاسباب الاولى الحاملة على الترف والحضارة وجد المحافظة على صحته
من ضروريات الحياة الصيدة وكان الامر الاول من ذلك بالفداء المناسب لدوامها
والكساء اللازم لقيامها لدفع مضارّ التقلبات الجوية واستعان بجمرة الشمس واستدل
بجرامتها على عظيمة النار وكان ولا ريب منظر النار لدبؤ جليلاً ورهيباً ومبعجاً حتى ان
الهنود يسمون الخالق آئي (Agni) اي اله النار وفي البدا يرغون لها ويعبدونها ويعتبرون
الحرارة ظاهرة وهي هذه وباطنة وهي ما يضرها الهها الرحي بالمسكرات ويزعمون ان
الحياة تأثير الحلول الروحاني ولذا سميت المسكرات بالمشروبات الروحية الى يومنا هذا
فتقدم الانسان في الحضارة طبعاً يستدعي كثرة المؤونة والحاجات الباعثة على زيادة
امراضه وبلايا شهبائه والتعب والبرد ومقاتلة الوحوش والرض والتشم والجراح
فسار بالنتيجة يبحث عن دفع عاهاته ورد صحته . فمن رأى ان صداعه مثلاً زال بمجرد
خدش الانف واجراء الدم اتي ذلك مني أصيب به ومن رأى انه اصابه على اثر البطنة
في؟ وسهال وغيره مضغ بعض النبات اتفاناً وأثر فيه ذلك التأثير استنج ان غابة
الطبيعة بتدل ذلك مزيلة لتلك العلة نيسى اليها . ومن رأى ان الضغط يوقف النزيف
ويحمد حدة الالم بادر اليه مني به ولا يسلم العقل بالقول ان صناعة الطب وجدت
دفعة واحدة او انها الهام روحاني كما زعم الكهنة الاسكولاييون وجعلها عقيدة راسخة
كثيرها في اذهان السذج ووسيلة الى امضاء شعبانهم لكسب الاموال سداً لاعوازم
يضيق الحرايت تلك الايام فان المرضى كانوا يطلبونهم لوجودهم مالكين زمام صناعة
الطب ليماجوم فكانوا يميلونهم الى ان يسألوا ضرورة اله الطب وحارس الاطباء
اسكولاب المحجة في هياكلهم الوثنية عن غير ابصارهم وكانت لديهم فرصة مناسبة لسلب
الاموال من الاعتياد . وخص الكهنة تلك الصناعة بانفسهم ليتسلطوا على الشعب كل السلطة
وكانوا يدعون انهم يعالجونهم بالهام تلك الصورة الموجبة بانواع العلاج حتى اذا امتنع الشفاء
او تأخر او مات المريض نسبوه الى عدم رضى الآلهة او عدم سماحها بغير ما حصل .
وادعى لوسيانو ان اسكولايوس ولد من بيضة غراب على صورة حية والظاهر ان الكهنة
هم الذين وضعوا الحية ضمن البيضة وتقنوها ايهاً للعامة ورمزاً للحكمة المتصفة بالحية بها
حتى ان رسم الحية المشاهد الآن على اثواب بعض الاطباء وابواب الصيدلة وآنية

المقايير رمزاً الى الحكمة المتصفة بالحياة بها والى كونها في الاطباء مأخوذة عما تقدم وكان الكهنة من اولاد اسكولاهوس . وتكنية الاطباء اليوم بابنائو ميني على ذلك بحسب رأي بعض اطباء هذا العصر

والطب كسائر العلوم له ثلاثة ادوار تاريخية دور قديم ودور انحطاط ودور نهوض فكتاب الفاضل ابو قراط المنون بالطب القديم يذكر ان الانسان عرف منذ نشأ بالبداهة والاختبار المواد المناسبة لصحته والمساعدة على ترويقته من الامراض فهذه المحافظة على جسمه طبيعياً تدرج بها في مراتب الكمال بالنسبة الى توالي اخباراتوه وكرور الازمان اما قدم صناعة الطب فظاهره اولاً بالاستدلال المقبول كما تقدم ومن الكتاب المقدس ومن التاريخ فجاء في سفر التكوين ان يوسف ارعيبه الاطباء ان يحتلوا اباه وحنط الاطباء اباه اسرائيل تك ٥٠ : ٢ ووصف في سفر اللاويين بعض الامراض الجلدية كالقرعة والقوباء والحزاز والبرص الموسوي وصفاً مدققاً حتى لم يبق سبيل للخطأ في ان ذلك البرص هو الجذام المعروف اليوم وقد ذكر عدوى بعضها وحذر تحذيراً جلياً في وصف ازالته حتى يتوهم القارئ القليل الامام بالدروس الطيبة ان نواميس البكتيريا عرفت منذ التقديم فذكر انها تلتصق بالجيطان واثاث البيوت وانه يجب نزعها وازالتها واعدائها بطرحها في الحلات النجسة وتجديدها وانضمها . وقد بين شدة الاضرار الناتجة من أكل اللحوم المصابة وشرح كيفية وجوب فحص علة الحيوان المذبوح للاكل حتى لم يبق محل للريب في ان معرفة عدوى الانسان من الهائم التي يأكل لحما قديمة جداً . وما يستغرب للغاية النهي عن اكل لحم الخنزير كان الشارع عارف بسرطان علة التريخييا القتالة منه الى البشر وكيفما كان الحال نعلم العلم اليقين ان ليس من اسرائيلي في العالم باسرو مصاب بطفة الجذام المعروف اليوم ولا ريب في ان الطريق التي الرزتهم الشرائع الموسوية والعوائد بالسلك فيها كافة لمن حفظها من الوقوع في ذلك المرض الخيف

وما ذكر في اعمال الرسل ان موسى النبي تمهذب بكل حكمة المصريين اع ٢٢ : ٢٢ فاذا ذكرنا سداجة الشعب الاسرائيلي يوشع بناء على نص الكتاب المقدس وما كان عليه من الجهل وهو تحت لواء المصريين والدرجة السامية من الروابط العلمية والفلسفية التي كان يسترشد بها في معيشته وعوائدهم يحكم بصدق شهادة الكتاب وصحة التاريخ بان معارف الاسرائيليين مأخوذة عن المصريين ولا توهم من توهم ان في هذا غرضاً فان

الطب من العلوم الاكتسابية التي لا تتعلق بالوحي كما اشار اليه العلامة المشرع ابن خلدون وهذا لا ينافي ان بعض مسائله بطريق الوحي والالهام
في الاغذية والعوائد المحرمة والمحللة منها نظري مبنية على قواعد صحيحة وهي مأخوذة
عن بعض الشرائع بلا اشكال بحفاظتها على افراد الشعوب وتحسين بنية النوع الانساني
عموماً لان المولود من المريض في الغالب سيء البنية حياته معذبة قصير الاجل وكثير من
اليوت فرضة الامراض وفعات باسباط وقبائل أكثر مما فعل بها سعي الحروب

ولاحاجة الى تطوير الكلام على كيفية تقدم فن الطب بالاستدلال والقرائن
باكثر مما تقدم على انا نفلم ان للفريزة والاتفاق والتجربة والقياس والمراقبة وتقدم
العلوم الفرعية له كالكيمياء والتشريح والفسولوجيا وغيرها حتى العلوم الرياضية والموسيقى
وساعة الايدي مدخلا عظيما في ذلك مع تقييد ما تحفل من السلف الى الخلف وبهذه
الايام استخدم المجهر فكشف عن غوامض كيميائية اجلها شرائع البكتيريا اي العالم الاصغر
فعرفت به اسباب امراض كثيرة وبيئت كيفية تأثير تلك الامراض وجانب عظيم منها
لا يتخص الا بفي الكوليرا مثلاً قالوا ان الباشلس الضمبي دليل على ذاتية العلة وابان
الدكتور كوخ بالمجهر مع التحليل الكيماوي انه لا يكفي للحكم بنوعية الكوليرا وجود الباشلس
الضمبي المذكور وحده بل ان الباشلس المصوب قد يخفي والمجهر يريه كالضمبي غلطاً
فالواسطة الاكيدة لذلك هي وضع البيتون فوق المبرزات او محلول مركز من الحامض
الكبريتيك والبيترك وتلوين مادتها بالاحمر انتهى

والفريزة كان كشفها الاول للوقاية الصحية طلب الحرارة والاستعانة بجمرة الشمس
والاضطرار الى الكسوة والاصطلاء وطلب الماكلة الدسمة الدهنية في الشتاء مع
انواع الحلويات وعوازل الحرارة كالصوف والاختشاب اليابسة للبس والسكن بعكس
الحال في ايام الحر الشديد

والاتفاق دل الاولين على معرفة معالجة امراض كثيرة وعرفهم تأثير ادوية عديدة
واضداد سموم اكتفي بذكر السير منها فالنوصفور سام جداً عرف تربيته بالاتفاق
وذلك ان بعضهم تعمد الانتحار فبلغ فوصفوراً وقصد سرعة ازالة حياته فاعان النوصفور
بحسب زعمه بجمرة من زيت الترتينينا فلم يؤثر فيه النوصفور البتة فعرف ان ذلك
الزيت تربيته ذلك السم. والشليم المقرن من المواد الطيبة الفعالة وعرّف تأثيره بالاتفاق.
ذكر تاريخ الانبياء في طبقات الاطباء ان مجذوماً اكل لحم افعى فبرى فظنفت اولاً ان

ما قرأته أقله مخالفة في الحال ولكن رأيت مؤخرًا في جريدة طبية تطبع في باريس ان
مجدومًا لسعته الانفي ذات الجلاجل فزالته منه جميع النفاطات والعقد الجلدية وسائر
الاعراض قبل الوفاة من تأثير سم الانفي بعد ٢٤ ساعة من السعة . وقد حلل كيمائي
سم الانفي المذكور فوجد ان معظم تركيبه من كلورات البوتاسيوم والعلم بين لنا ان الحقن
باملاح البوتاسيوم في الدورة الدموية قاتل ولو بقليل منها فاستنتج ان استعمال كلورات
البوتاسيوم على طريق المدة بجرعات عالية دون المهلكة مفيد في تلك العلة فان صح ما
قيل وما أكدته تجربت المذكور في تلك الجريدة يكون الاتفاق علة ذلك

اما التجربة فكانت ولا تزال من اركان تقدم صناعة الطب العظيمة . وكان لها مع
القرنين في جثث الاموات من الناس والبهائم اسمى النتائج بازياد مواد فن الجراحة علمًا
وعملًا فيها اقدم الجراحون على استئصال فُرح رئوية واورام من المعدة من وجبها
الخلفي وقطع من الماء والمبيض والرحم وبها ترفنت الجمجمة واستوصلت اورام من الدماغ
حتى جانب من قس مادته المريضة . وقرأت حديثًا انهم استأصلوا الزائدة الدودية في
النهاية القتال وشفيت العلة . وانتهى معظم الطل المار يانها بالشفاء . فحدث عن عجائب
القرن التاسع عشر ولا حرج

وبالمراقبة والقياس شوهد شفاء قروح رئوية درنية الاصل يرواسب كسبية فيها في
جثث كان الموت حاصلًا بغير تأثير تلك القروح الدرنية . والمشاهدة بينت ان الكلاب
تأكل العظام الحاوية فضات الكلس ولا تصاب بالسلب الرئوي الا نادرًا وتطعيمها
يأشلسه فلما يوتر فيها خلاقًا تغيرها من الحيوانات فالرابعة المذكورة والقياس بذلك
حقق ان ادخال فضات الكلس الى البنية في المسلولين مفيد في تلك العلة وكان الامر
بعد التجربة كما ذكر

واعلم الحقن بدم الكلاب حسب رأي بعضهم في الاوردة مفيد أكثر من الاول
لوجود فضات الكلس على الحالة المناسبة للوقاية ان كانت كما زعم . وبالمراقبة عرف ان مواد
كثيرة من السموم يختلف تأثيرها في البهائم والانسان . فاليش وبسبي قلنسوة الراهب
يقتل الانسان والظائر السمي بالزرزور يأكله ويفتدي به ولا يضر . والسلياني اقل
من فحتمين منه يقتل الانسان والعقاب التهم سمكة فيها درهماً منه على ما قال المعلم
اورفيللا ولم يتأثر . واذا عرفنا ان الجيف التي تقتل براحتها الانسان هي طعام العقاب
المعتاد لا نستبعد ما ذكر . والبقدونس والكواسيا يفعان الانسان والاول يميت

البيضاء والحجل والثاني يقتل الذبان . وهكذا كان بالمراقبة والقياس اكتشاف الفاضلين يعقوب جبر و باستور للتطعيم بالجدري البقري وبمادة الكلب
 اما كون فن الكيمياء والتشريح والسيولوجيا وغيرها من الفروع كالميتولوجيا
 واليكترولوجيا الخ من بواعث تقدم فن الطب فشاوهدة أكثر من ان تحصر مثالها
 لسبك الفرنسي عرف ان الدم فلوئي والكورال تحله القلويات الى كلوروفرم و حامض
 فمليك فاستج ان تأثيره بادخاله الى البنية يكون مخدراً ككتاثير الكلوروفرم فكانت
 حكم هذا نظير حكم المولى اسحق نيوتون الذي عرف شدة تكبير الماس اشعة النور فحكم
 بقابليته للاحتراق . قال كولب ان الحامض السيليك ينحل الى حامض كربوليك
 واكسيد الكربون فيصح استعماله مضاداً للفساد وكان كما قال . اما افادة التشريح فلم
 تقتصر على معرفة مجاورات الاعضاء ومراكزها بل لها فوائد حمة اخصها في الجراحة وفي
 الطب الشرعي ومثله فن الكيمياء بفحص المواد تنبئ على النتائج احكام الحكماء في الجنائيات
 وجانب عظيم من الامراض لا يتخص بلا استخدام الكيمياء . ناهيك عن ان العقاقير
 الدوائية لا تعرف بدونها ولا تؤكد تقاوتها بدون ان يكشف عنها العلم المذكور . اما فن
 الموسيقى فيه يدرك الطيب شدة الالفاظ القلبية والحركات التنسية واصوات القرع
 والاستقصاء وامثالها و كينيتها . وصناعة الابدعي ينقر اليها الجراحون في جانب عظيم
 من اعمالهم باختراع الآلات المناسبة للاحوال التي تستلزمها الحوادث ولا يبرر باختراعها
 الا من تفنن بها

اما حالة العلوم الطبية في الازمنة القديمة فلا دليل لنا انها كانت على الدرجة التي
 هي عليها الآن من الاتقان الا انه يظهر ان تقلبات الايام اخفت مواد كثيرة من جملتها
 مواد التخفيف التي يستدل بلا ريب انها من ضادات النساد التي لا يعلما احد من
 المتأخرين لانها تتكفل بحفظ المواد الآلية على اسلوب اتم جداً من المواد التي لدينا ولا
 سبيل للرب في ان علوم الطب اجمالاً كانت على درجة ادنى جداً ما هي عليه الآن .
 فالكتاب المقدس يشهد ان العبرانيين كما تقدم اخذوا مآثرهم عن المصريين ومن
 تواريخ الشعوب المتدنة لا تاريخ لنا اقدم من تاريخ اليونانيين الذي بين انهم ايضاً
 اخذوا علومهم عن المصريين . وقيل ان الامكندر لما ملك دارا عمدا الى كتب الطب
 واحرق اصولها بما تقابلها الى اللغة اليونانية الا ان فن الطب كان في مصر وسائر
 المشرق . وقيل انه في زمان الاشوريين كانت المرضى تعرض على الناس في الشوارع

لسترشد بنصائح المارين بمقتضى اخبارهم . وبعدة طلب ان كل نافع يكتب على الهياكل اعراض مرضه وما استعمله من الادوية ولما اجتمع لديهم عدة حوادث وتقرّر بها كثير من العلاجات المقيّدة على النوال المذكور تقرر عمل قانون الزامي في صناعة الشفاء وسي كتاب الطب المقدس فكان من يدرّب من الاطباء بنظايمه لا يُبال عن شيء ومن يتعداه يُعاقب بالموت اذا مات مريضة

اما ابتداء علم الطب عند اليونانيين فمجهول وآثاره مسكت التاريخ عنها قروناً عديدة والذي صرح به فقط هو ان الكهنة الاسكولايين كانوا يتناقلون المعارف الطبية بالارث وكان تعليمه لسوى اولادهم غير مباح حتى قام ابو الطب ابوقراط وتقص هذا المبدأ واباحه بقوله كل العالم اولادى فرتب المستشفيات وترك لنا كتباً عديدة ونصائح وقوانين وآداباً شتى لسترشد بها وكان يشق عن الحصى المثانية وكثير من الآلات الجراحية التي كانت تستعمل قديماً محفوظ في معرض نابولي ولم يكن يسمح لتلامذته بذلك لضعف المعرفة بالشرح الملهي والعملي . وتحريم فتح الجثث بتلك الايام كان العثرة الكبرى في طريق تقدم هذا الفن الجليل والظاهر ان ذلك كان عارفاً بشرح الجان ولعله كان يستبح سرّاً الشريح لذاته وكشف المجاورات من الجثث خفية الا ان خوفه من اهل الدين حمله على عدم اباحته الصل لتلامذته واطلاعهم على ذلك لتلاّ شبح الامر فصير عرضة للعلام وربما اوتقروا به . ونقلت الينا العلوم الطبية عن مدارس رودس وكنيدوكوس وهي اقدم المدارس المعروفة في الطب

ففي ايام بطليموس الاول قبل التاريخ المسيحي بثلاث مئة سنة اشتهرت مدرسة الاسكندرية لاباحتها فتح الجثث ونبغ منها هيروفيلس وايرامبستراتوس وقد شرحا ٧٠٠ جثة بشرية . وعرف كثير من امور الدماغ ومجتمعات الجيوب التسوب الى ديروفيلس الى يومنا هذا والاعصاب . اما القول بان القديمي المراكز الغذائية للاعصاب وكون ذلك لم يعرف في غير هذه الايام فغير صحيح لان جالينوس قال القديمي حصون الاعصاب قبل ذلك بقرون عديدة حتى ان ذلك كان يرفع الضغط عن الدماغ برفع العظم الفاعط بالمرناع ووصف المضلات والعظام والشرابين بكونها اوعية دموية ووقف الطب عند ذلك الحد الى القرن الحادي عشر والثاني عشر فهض نهضة الخائر القوى وعاد الى وقتنا حتى القرن الخامس عشر اذ اضمحلت العلوم من المغرب وظهرت بين اهل الاسلام بشهادة وزير المعارف وروى بفرن قال علي ما نقله صاحب "اقوم المسالك في احوال

المالك " خير الدين باشا التونسي بينما كانت اوروبا في ظلمات الجهل والتوحش لا يرون الضوء الا من سم الخياط اذ سطع نور عظيم من جانب الامة الاسلامية من علوم ادب وفلسفة وصناعات حيثما كانت مدينة بغداد ومصر وفارس وقرناتطه وقبروان ودمشق مراكز عظيمة لدائرة العلوم والمعارف على ان توارى عن عرب الجاهلية قبل الاسلام غير معلومة تماما

وما ذكره ابن خلدون في مقدمته ان للبادية من اهل العراق طب يشونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزهم وربما يصح من البعض الا انه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة مزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم اطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره . ولما كان الطب كسائر العلوم لا يتأتى للانسان البحث عنه الا متى توفرت له الاسباب الضامنة سد اعوازه فبرئتي كارتقاء الشعوب المتقدمة المعروف فالعرب بالنظر الى كونهم اقل من اهل الامصار اضطرارا الى الترف وبالبعية الى الطب والتقدم في علومه كما قاله ابن خلدون ايضا لاقتصرهم على انواع بسيطة من المآكل وتعودهم الجوع وجوبهم القفار تراض اجسادهم ويكونون بمنزل عن استيلاء الاجرة السامة الحاوية انواع التقيجات

اما ما اتى به جهابذتهم كابن سينا والطبري وابن الطيب والفخر الرازي فبيى على اعتقاد ان الامراض ناشئة عن تغلب احدى الانزجة المروفة الى يومنا هذا بالصفره والسرداء والبلغم والدم وبفعل العقاقير من حار ورطب ويابس وهلم جرا ومولفاتهم حاوية فوائد كلية بعبارات يطرب الاسماع ترددها كقول ابن سينا في الشرابين انها اوعية نابثة من القلب لها حركات منقبضة ومنبسطة منفصلة بسكونات حاملة دم وروح توزعها على اعضاء البدن باذن الله . ومع ذلك ففي كل ما القوه لم يأتوا حسب الظاهر الا بما نقلوه عن اليونانيين . والفخر الرازي قد اعاد معالجة الجدري والحصبة الى طريقه الاول بالبردات وتنظيف المكن وملابس المرضى، وتجديد هواء الغرف وعليه سلك الاوربيون في الحالة الراحنة وقد تكرم بشرها ذو الفضل العميم على السوربين امامنا الصلامة الدكتور كرينيوس فان ديك فله التناء الجميل

اما طرق معالجتهم باستخراج الحصة المثانية والتروح والجروح وتوقيف التزيف والبتر الى غير ذلك فعلى ما عرف وشوهد طرائق مخفوفة بالاخطار ينكرها العلم الحاضر كل الانكار

وفيا سرى ذلك تناولهم البان النوق والثمر والعمل وخلافها
 اما البدع الطبية فكانت تتوق بدع الاديان قاطيةً اخص بالذكر منها بدعة حنان
 وهي ان يداوى المرض بمثل المصاب فاذا مرض رأس انسان سقاء مسحوقا مجفقا من
 رأس الحمار زعما ان الشفاء يحصل بالمشابهات عكسا لقول جالينوس ان الشفاء يحصل
 بالمتضادات

ومنها بدعة بروسا الفرنسي وهي ان يجلس جميع الامراض الفشاء الخاطي المعدي
 المعوي فكانت يداوي الداحس مثلاً يوضع علق على المعدة ومنع اعطاء المسملات
 واستماض عنها بالماء المصنغ والحقن

وتقدم الطب في ايامنا باكتشافات حجة منها الترمومتر في الحيات فاثبت رأي
 جالينوس انها زيادة حرارة فكان كبيرة الملاحين في البواخر . اما الاكتشاف السامي
 وهو اكتشاف باستور وكوخ العوالم الميكروبية فقد اقام فرعاً مهماً للدراسة وهو فن
 البكتريولوجيا فانه ابان علل امور كانت مجهولة ومهد للجراحين سبل اجراء العمليات
 الكبيرة المارذكرها وكشف لم طرق ابادة الجراثيم التي كانت تمنع نجاح العمل وجعل
 الاطباء يتوقعون الوسائل الى ملاشاة الاويضة والامراض السارية كاسل فهذه
 الامراض وان كان العلم لا يزال قاصراً عن شفاها صارت الوسائط المعروفة كافية
 لوقاية الاصحاء على نوع ما منها. ولا يبعد ان تأتي طرائق تجديد الدم في الامراض المهلكة
 وفي الشيخوخة بنفع عظيم للنوع الانساني وعمى الشيوخ تعود شباباً ويكون الدعاه مستجاباً
 فدرس الفلاسفة الحوادث الطيمية والاطلاع على حقائقها والبحث فيها في الاحوال
 الصحية والمرضية كان بالمشاهدة والعقل لا بالافتراض والنقل ولا يسع ذكر هذا الخطاب
 كل ما يتعلق بهذا الموضوع الأعلى سبيل الايجاز كما لا يخفى فانه واسع المجال تضيق به
 المجلدات الضخمة فان مبادئ الطب الصحيح نشأت اولاً من النظر الى الاشياء نظر تقسيم
 ثم نظر فيها من حيث كونها حادثه ولا بد لكل حادث طبيعى من سبب كافٍ ولذلك
 تُعرف الاشياء باسبابها ولما مال الباحثون الى التجربة والاختيار انتقل الطب من دائرة
 الغنون وخوارق العادة الى تأخير العلوم المدركة المتحصلة بالبحث والمراقبة لان حل
 الصعوبات بالافتراضات لم يكن يقنع العقول التي تبحث بالدليل والبرهان